سورة الإخلاص

عرض ودراسة

تحمل هذه السورة القصيرة من سور التنزيل الاصل الأول من أصول الدين الحنيف الثلاثة ، وهى : التوحيد والشريعة والمعاد ، ولعل ذلك ما جعلها تنزل من القرآن الكريم بمنزلة ثُلثه .

(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) :

نزلتْ هذه الآية وأخواتها جواباً للمشركين حين سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصف لهم ربَّه ويبيِّن لهم نَسبه . فوصفه لهم ونزَّهه عن النَّسَب ، إذ نفى عنه أن يكون والدًا أو مولودًا أو أن يكون له شبيه ومثيل . وكلمة (هو) ضمير تفسره الجملة التالية (اللهُ أَحَدٌ) وهو يدل على فخامة ما يليه ، بإبهامه ثم تفسيره ، مما يزيده تقريرًا . والصوفية يطلقون الضمير (هو) على الله فيما اعتادوه من ذِكْر ، إذ يقوم الرجال على صَفَّين بينهما منشد ، وهم جميعاً يهتفون (هو - هو) بسكون الواو . وكأن كل ما فى الوجود يغيب عنهم ما عدا الله بهويته المطلقة رامزين إلى ذلك بكلمة (هو) وكأنها تعيِّنه وحده دون حاجة إلى تعيين ، على نحو ما يتعين رجوع الضمير إلى النفس فى قوله تعالى : (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ) أى النفس دون ذكر لها ، لتعيُّنها دون سواها ولحضورها فى الذهن . وبالمثل (هو) تشير إلى الله ، بل تعيِّنه دون حاجة إلى ما يميِّز المراد بها ، وكأنهم لا يُحِسُّون موجودًا بعيون بصائرهم سواه . وهو بذلك متعين بهويته دون أى حاجة إلى تعْيينه ويتحتَّم أن يكون الضمير (هو) راجعاً إليه وأن يكون معبرًا بقوة عن عرفانهم

به . و (الله) علم دالٌّ على الذات العلية دلالةً مطلقة تجمع كل معانى أسمائه الحسنى وما تصوره من التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والجلال والكمال . و (أحدٌ) صفةٌ تقرِّر وحدانية الله من كل الوجوه ، فهو واحدٌ فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله وفى عبادته ، أما أحديَّتهُ أو وحْدانيَّته فى ذاته فمعناها أنه يستقلُّ بوجوده عن وجود الكائنات والمخلوقات ، فوجودها حادث بعد عدم ، وهى محتاجة إلى علة توجدها وتظل قائمة عليها حافظة وجودها طوال ما كُتب لها من بقاء . أما وجود الله فوجودٌ أزلىٌّ ، وجودٌ لذاته ، ومنه انْبَثَقَ الوجود كله ، إنه واجب الوجود الذى لا أول لوجوده ولا آخر ، والفرد الذى لا تركيب فى ذاته ، إذ لو كان مركباً من أجزاء وأقسام لتقدَّم وجود الأجزاء والأقسام على وجود الكل الجامع لها والمؤلَّف منها ، فيكون وجوده محتاجاً إلى وجود غيره ، وهو ما يتعارض مع وجوده الأزلى القديم قياساً بيِّناً وبرهاناً واضحاً . وهو أحد فلا إلٰه سواه ، وإن إشراك أى قوة من قوى الطبيعة معه لشركٌ عظيم ، وكانوا قد عبدوا آلهة متعددة من الكواكب السماوية مثل الشمس والقمر والزهرة ومن الشجر والصخر والطير مثل العُزَّى ومَنَاة ونَسْر . وكان منهم من اتخذ إلٰهين : إلٰهاً للنور وإلٰهاً للظلمة ، ومنْ قال إن الله ثالث ثلاثة من الآلهة ، فأعلن القرآن الكريم النكير بشدة على كل من اتخذ إلٰهاً غير الله . وقرَّر مرارًا وتكرارًا : أنه لا شريك له ولا مثيل ، وأن كل من عَبَدَ غيره فهو مشركٌ جاحد يستحقُّ غضَب ربِّه وعذابه الأليم ، ولن يعفو عنه ولن يَصْفح ولن يغفر له ، يقول عَزَّ ذكره فى سورة النسّاء : (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيدًا) . ووحدانية الصفات تعنى

تنزيه الله فيها عن صفات المخلوقين من البشر وغير البشر ، فهو متفرد بصفاته تفرده بذاته كما قال فى سورة الشُّورَى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) لا فى الذات ولا فى الصفات ، أما ما جاء فى الذكر الحكيم من وصف الله بأنه متكلم أو سميع أو بصير فى مثل قوله عن الرسل فى سورة البقرة : (مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ) وقوله فى سورة الإسراء : (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فإن ذلك لا يعنى أَنَّ للهِ لساناً أو أُذُناً أو عَيْناً أو جوارح كجوارح الإنسان إذ هو فوق كل تكييف حِسِّى وكل تشكل مادى ، إنما يعنى انكشاف الأشياء له وأن هذه الصفات تتعلق بذاته تعلق إدراك لا بجارحة كما هو الشأن فى الآدميين . ومثلها كل الصفات التى قد تفيد تَجْسِيماً أو تَشْبِيهاً مثل وصفه بأنه عليم فإن علمه ليس عن طريق ذهن فى رأس ، ولا عن طريق وجدان فى قلب ، فصفاته لا شبيه لها ولا نظير فى صفات البشر . وقل ذلك فى صفات الحب والرأفة والغضب ، وأيضاً فى إضافة اليد إلى الله فى آية سورة الفَتْحِ : (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيدِيهِمْ) وإضافة الاستواء على العرش إليه جَلَّ جلاله فى آية سورة يُونُس : (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) فإن ذلك كله لا يعنى التحيُّز أو التكيُّف ، إنما يعنى سلطان الله على الوجود وانكشافه له . وقد تعددت صفات الله فى القرآن ، ولأنها ذاتيَّة دَعَاها أَسْمَاء ، إذ يقول فى سورة الأعراف: (وَلِلهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) ، ويقول فى سورة الحشر: (هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) وقد مرَّ حديث عنها فى دراسة سورة الأعلى، ونذكر هنا أن منها مايصور عظمة الكائن الأعلى وجلاله مثل: العظيم، المتعال، الحميد، المجيد، القُدُّوس ، ذى الجلال والإكرام . ومنها ما يصوِّر خَلْق الكون وصنع الوجود مثل : البارئ ، المصوِّر ، الخالق ، البديع. ومنها ما يصوِّر القدرة الإلٰهية مثل: القوىّ ،

القادر ، القهّار . المهيمن . ومنها ما يصوّر العلم الربّانى مثل : العليم ، الحكيم ، الخبير . ومنها ما يصوّر رحمة الله بعباده مثل : الرءوف ، الرحمن ، الرحيم ، إلى غير ذلك من صفات قد تلتقى بصفات البشر ، ولكنها تختلف عنها فى الجنس والنوع هى وكل ما يتصل بالذات الإلٰهية . ومن الخطإ البيّن محاولة التعمق فى تصور ذات الله والتفكير فى كُنْهه وحقيقته لاستحالة معرفة ذلك ، إذ يخرج عن حدود العقل الإنسانى ولا قِبل لطاقته الذهنية المحصورة المحدودة به ، مما قد يَؤُولُ بصاحبه — إن هو حاول — إلى التخبُّط فى الاعتقاد على غير هُدًى . وحسبُ المؤمن أن يؤمن بربه ووحدانيته فى ذاته وصفاته وأنه لا يشبه الكائنات وأن له المثل الأعلى فى النعوت والصفات والقدسية والكمال والجلال . ووحدانية الله فى أفعاله هى التفرد فى خلق الكون والقيام عليه وتدبير نظامه المحكم بقوانين ماثلة فى جميع الأشياء . يقول جَلَّ شأنه فى سورة قٓ : (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) ، ويقول فى سورة يٰس : (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) ، والآيتان تصوِّران كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع قانوناً من قوانين الخلق الإلٰهى السارية فى الكون ، وهو قانون خَلْق الأشياء من زوجين . ووراء هذا القانون قوانين أخرى منبثَّة فى الكَوْن تُمْسِكُه أن يزول ، قوانين بثَّها فيه صانعٌ قادر مدبِّر انفرد بإنشائه وإبداعه دون أىّ شريك ، إذ لو كان هناك شريك له أو شركاء لتعددت الآلهة وتنازعت فى الخلق وقوانينه ، ولاضطرب نظامُ الكَوْن واختلَّ اختلالاً يُفْضِى إلى انهياره ،

وفى ذلك يقول تبارك وتعالى متحدثاً عن خلق السماء والأرض فى سورة الأنبياء : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا) ، ويقول فى سورة « المؤمنون » : (مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذَنْ لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عمَّا يَصِفُونَ) ، فلو أنه كان هناك إلٰهٌ آخر غير الله أو آلهة متعددة لاصطدمت إراداتهم وقدراتهم ، ولتضارب خلقهم وتكوينهم وإنشاؤُهم . ولفسدت السموات والأرض ومَنْ فيهما ولتصدَّع النظامُ الكونىُّ جميعه . غير أن شيئاً من ذلك كله لم يحدث ، مما يدلّ دون أدنى ريب على أن إلٰهاً واحدًا هو الذى يصرِّف الكون ويدبِّره ويحفظ بناءه ونظامه وسننه وقوانينه ويحول بينها وبين الاختلال والاضطراب ، وإنه لصانع أحكم كل شىءٍ فى الوجود وقدَّره تقديرًا يشهد بتفرُّده فى الخلق والتكوين والإبداع والإحكام . ووحدانية الله فى عبادته هى طاعته والإخلاص له وحده ، وكان العرب فى الجاهلية قد عَبدوا آلهةً كثيرة على نحو ما مرَّ بنا آنِفاً ، وأضافوا إلى هذا الشِّرْك والإيمان بتعدد الآلهة شركاً ثانياً بعبادة الأوثان ، وهى أحجار كانوا يحملونها وقد ينصبونها فى مكان ويطوفون بها ، وفى سورة الحَجِّ : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ) وكانوا يؤمنون أن عبادتها هى والأَصْنام تنفعهم فى حياتهم وتَدْفَع عنهم الأذى والضَّرر ، فاسْتَأْصلَ القرآنُ فى نفوسهم هذا الإيمان كما اسْتَأْصَل إيمانهم بتعدد الآلهة ، وبذلك انتشلهم من درْك الوثنية وكل ما يرتبط بها من سِحْر وشَعْوَذَات ، إذ جعلهم يؤمنون بوحدانية الله وأنه لا شريك له ولا معبود سواه ، مما أَضْفَى عليهم وعلى الإنسانية كرامتين : كرامة تحرير الروح من الشِّرْك وعبادة الأوثان والأَصْنَام والأَحْجار وقُوَى الطبيعة وإعدادها لكى تتلقَّى ما أُودِعَ

فى فِطْرتها من الإيمان بالله وبوحدانيته والإخلاص له إخلاصاً يسمو بالإنسان وبمداركه الدينية ، وكرامة تحرير العقل من الخرافات وكل ما اتصل بالوثنية من الترهات والأوهام الباطلة وإعداده لكى يستردَّ حقوقه التى كانت مهدرة من التفكير السَّديد ، فلا يقع فى مخالب خرافة ولا فى براثن أسطورة ، ولا يصبح لُعْبة فى يد كهَّانٍ ومُشَعْوذين . ، ويتخلَّص من كل تلك القيود التى كانت تَغُلُّه ويفكُّ نفسه من إسارها ومن إسار كلِّ ما كان يَعُوقه عن النظر النافذ والمعرفة القويمة بالكَوْن وقواه المتنوِّعة ، بل لقد نفَض عَنْه كلَّ صغار كان يشعر به أمام تلك القُوَى والأسرار ودفعه دَفْعاً كى يحلَّ طلاسمها ويستغلَّ منافعها ، وفى ذلك يقول عَزَّ ذكره فى سورة الجاثية : (وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّمٰواتِ ومَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون) فكل ما فى الأرض وما فى السموات سخَّره الله للإنسان وذَلَّلَهُ لكى يستكشفه ويفضَّ أسراره ويفيد منه أكبر فائدةٍ بما وهبه من مدَّخرات ذهنه وذخائر عقله.

(اَللّٰهُ اَلصَّمَدُ) :

(الصَّمَدُ) المقصود فى الحوائج وحده ، فهو المَلاذ وهو المَلْجأ وهو المُسْتعان وهو المُسْتغاث ، ولا حَوْل ولا طَوْل لسواه ، إنه الخالق الصانع الحافظ الوهَّاب النافع الضارُّ ، كلُّ شىء بيده وفى قَبْضَتِه ، يُعْطى ويمنع ، ويَبْسُط ويقبض ، ويثبت ويعاقب ، وكل شىء فى الكون مُتَّجهٌ إليه يتلقَّى منه الوجود ، إنه المحيي المميت الذى يهب كل حىٍّ حياته ، وكلُّ حىٍّ بل كل كائنٍ ينقاد إليه شاعرًا بضعفه وعجزه وأنه مختاج إلى برِّه وتفقُّده له ، فهو الكالئُ الحافظ بالليل والنهار وعلى مَرِّ الزمان ، وهو الرَّاعى

المربى الذى يفتقر إليه كل شىء فى الوجود وينقاد بأزمَّتِه ، وفى ذلك يقول جلَّ ذكره فى سورة النَّحْل : (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فى السَّمٰوَاتِ وما فِى الْأَرْضِ) أما سجود الإنسان فسجودٌ يختاره لنفسه ، وعبادةٌ متصلةٌ لربه ، حتى ينال نعيمه ورضوانه . وأما سجود ما عدا الإنسان من جمادات وغير جمادات فبالتسخير وكمال الخضوع والانقياد للذات العلية التى لا يوصف سواها بإعطاء كل شىء ما فيه مصلحته ، وفيه وجوده وبقاؤه . فهو صاحب السلطان وصاحب الأمر كله ، واهب النِّعمِ الذى سَخَّر كل ما فى الوجود للإنسان تكريماً وتفضيلا له على كل ما خَلَق ، ووالاه بنِعمه صباحَ مساء ، فطبيعى أن يسكن إليه ويطمئن إلى كرمه وجوده ، وطبيعى أن يفزع إليه فى مآربه الدنيوية والأخروية ، وكلما حَزَبه أمر أو نزلتْ به كارثة . وكان العرب فى الجاهلية قد أسلموا قيادهم لكهنة الأوثان وألقوا فى وَعْيهم أنَّها شُفَعاء الناس إلى الله فى كل ما يطلبون ويأملون من ضُرٍّ ونَفْع وشَرٍّ وخير ، ومَدُّوا لهم فى الغَىِّ ، فدفعوهم إلى عبادتها من دون الله مكرِّرين على أسماعهم أنها الواقية الحافظة التى تَقْضى لهم كل ما يريدون من آمال ومطالب ، ونَقَض القرآن عليهم ذلك كله نَقْضاً منددًا بهم تنديدًا شديدًا بمثل قوله فى سورة يونس : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ) . وقد ألغى الذكر الحكيم كل وساطة بين العبد وَربّه ، وفَتَح أبوابه أمام عباده ليسألوه داعين ضارعين ويجيبهم . إنه البارُّ المحسن الذى يتفقَّد عباده ومطالبهم ويُنيلهم ما يطلبون ، منَّةً وإنعاماً وفضلاً . وفى ذلك يقول تبارك وتعالى فى سورة البَقَرة : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا

لى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُم يَرْشُدُون) ويقول فى سورة غافر : (اُدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ) ، ويقول فى سورة الأعراف : (اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) . والله بذلك يَرْفَعُ كل حجاب بينه وبين عباده ، ليتجهوا إليه بالمسألة حين تنزل بهم بعض الخطوب أو حين تُصيبهم بعضُ الفواجع أو حين يلتمسون أىَّ مقصدٍ من مقاصد الدنيا أو مقاصد الآخرة . والدعاء فى الآية الأُولى مرتبط بالاستجابة لله ولرسوله ودينه ، فليس كلُّ مَنْ دعا الله ولو كان عاصياً يجاب دعاؤه ، بل لا بد أن يكون قد آمن بالله وحَسُن إيمانه ويقينه . والدعاءُ فى الآية الثانية مطلقٌ ، ولكنه موجَّه إلى المؤمنين الذين أَنَابُوا إلى الله وخَشَعَتْ له جَوَارِحُهم وقلوبهم . أما الآية الثالثة فصريحة فى أن الدعاء لا يُتَقَبَّل من المعتدين المجاوزين لحدود الله ، كَبُرَ هذا التجاوز أو صَغُر ، وفى الحديث النبوى : « ما من مسلمٍ يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رَحِمٍ إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجِّل له دعوته ، وإما أن يَدَّخِرَ له ، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها » . ويدخل فى الإثم كل ما يسبِّب لصاحبه معصية أو لغيره أذًى ، ويدخل فى قطيعة الرحِمِ جميع حقوق المسلمين . فمن دَعَا الله بإثمٍ أو باقْتِرَافِ عُدْوانٍ أو ظلم لا يجيب الله دعاءه ولا يسمع له ولا ينظر إليه . وفى الحديث : « الرجل يطيل السَّفَر ، أَشْعثَ أَغبَر ، يَمُدُّ يديه إلى السماء : يا رَبِّ ، يا رَبِّ ، ومَطْعمه حَرامٌ ، ومَشْربه حرامٌ ، وملْبسه حرامٌ ، وغُذِّى بالحرام ! فأنى يُسْتَجابُ لذلك ؟ ! » وهو استفهام أراد به الرسول ، عليه السلام ، استبعادَ إجابة الدعاء من مثل هذا الرجل الغارق فى الآثام إلى أذنيه . فلا بد فى الداعى لربه من حُسْن تدينه وانقياده لشريعته وإخلاصه فى طاعته

والاستعانة به والاعتماد عليه ، مع التضرع والخشوع ، كما أشارت آية الدعاء الثالثة ، ويُسْتَحَبُّ ألا يكون الدعاء بصوتٍ عالٍ ، وأن يكون هَمْساً ونَجْوَى بين العبد وربِّه ، وفى الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع فى بعض الغزوات نفرًا يصيحون فى دعائهم إلى الله ، فقال لهم منكرًا صياحهم : «أيها الناسُ ! ارْبعوا – أى ارفقوا – على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيرًا وهو معكم ، وهو أقربُ إلى أحدكم من عُنُقِ راحلته » وهو أدب مطلوب فى دعاء الله وخطابه . وينبغى أن يكون الدعاء دائماً فى أغراض خيِّرة ومقاصد حسنة ، وأن يجمع الداعى إلى الأدب فى السؤال الثناء على الله جَلَّ جلاله ، وفى الحديث النبوى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يَقْنُتُ فى صلاة الصُّبْح وفى وِتْرِ الليل بهذه الكلمات : «اللهم اهْدِنى فيمن هديت ، وعَافِنِى فيمن عافيتَ ، وتولَّنى فيمن تولَّيتَ ، وبارِكْ لى فيما أعطيتَ ، وقِنِى شَرَّ ما قضيتَ ، فإنك تَقْضِى ولا يُقْضَى عليك ، وإنه لا يَذِلُّ مَنْ واليتَ ، تباركتَ ربنا وتعاليتَ » .

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) :

تنزيهٌ لله العلى العظيم عن شَبَهِه بالآدميين الفانين الذين يوجدون بعد عدم ويعيشون وينجبون الولد والأولاد ، ثم تَشْتَعِلُ رؤوسهم شَيْباً ويبلغون من الكِبَرِ عِتِيًّا ، ثم يموتون . سُنَّة الله التى فَطَر عليها الناس ولن تجد لسنة الله تَبْدِيلا ، فقد كتب على الناس الوجود والحياة والموت ، حياة لها أول وآخر ، يعيشها الإنسان مع صاحبة له ويتخذان الولد والأولاد ، ثم يكون

القضاء المحتوم . وهو بذلك يكون والدًا ومولودًا فى آنٍ واحد ، أما الله فتعالى عُلُوًّا كبيرا عن أن يلد أو يولد ، وكيف يولد أو يكون له أولاد وهو مبدأ الوجود ولا صاحبة له من جنسه الربانى ؟ إنه الواحد الأحد ، رب الكون ومنشئه ومبدعه ، وفى ذلك يقول جلَّ شأنه فى سورة الأنعام : (بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ولَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَخَلَقَ كلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شىءٍ عليمٌ) . والقرآن بذلك يُنَزِّه الكائنَ الأعلى عن مجانسة الآدميين فى اتخاذ الصاحبة أو الزوجة واتخاذ الأولاد . ويقرن إلى هذا التنزيه لله جَلَّ جلاله تنزيهه عن أن يكون مولودًا ، إذ لو كان مولودًا لكان حادثاً بعد عدم ، مَثَله مثل جميع الآدميين ، ولاحتاج فى حدوثه إلى موجدٍ يوجده وصانع ينشئه . وبذلك تَسْقط ألوهيته إذ يكون محتاجاً إلى إلٰهٍ يمنحه الوجود . وكل ذلك فسادٌ فى التفكير تشهد ببطلانه فِطْرَةُ الإنسان وما أُودِعَ فيها من الشعور العميق بأن للكون خالقاً لا يستمدُّ وجوده من غيره ، إنما يستمده من ذاته التى لا يسبق وجودها عدمٌ ولا يلحقه عدم ، وجود الله واجب الوجود الذى لا أول له ولا آخر ، والذى تنتفى عنه كل مِثْليَّة وكل والديَّة ومولوديَّة تتصف بها الكائنات الأرضية .

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) :

ليس له أحدٌ كُفُوًا أو مماثلا فى ذاته وصفاته وأفعاله وجميع شؤونه الإلٰهية . وقد جعل الله هذه الآيةَ خاتمةً للآيات قبلها ، فبعد أن قرَّر وحدانيته وعظيم سُلْطانه وأنه ملاذُ الكون ومخلوقاته وأنه منزَّه عن مشابهة الإنسان ومماثلته لتفرُّده بقدمه وأزَلِيَّتِهِ قال فى صيغةٍ عامة إنه ليس له مثيل ولا نظير من

الخلق فى أىِّ صِفَةٍ ولا فى أى فعل ولا فى أى شىء من الأشياء . وقد سفَّه فى مواطن كثيرة من الذكر الحكيم مَنْ جعلوا له أنْدادًا من الأجرام السماويَّة أو من الجِنِّ أو من الأوثان ، وجميعها بَيِّنَةُ العجز أمام الصانع الأعظم نور السموات والأرض الذى ينشر أضواءه على كل ما فى العالم ، وما من كائن إلا يفتقر إليه فى وجوده ، ويلتمس منه شعاعاً من نوره . إنه المنعم المتفضل الذى يتفرَّد بكماله وجلاله ، رفيع الدرجات مالك الملك لا إلٰه إلا هو ربُّ العالمين .

ولاشتمال هذه السورة الكريمة على توحيد الله وتنزيهه عن الشَّبِيه والمثيل سُمِّيت سورة التوحيد ، وسُمِّيت أيضاً سورة الإخلاص ، لأنها تتضمن خالص التوحيد والصفات القدسية ، وفيها يقول الإمام الغزالى :

عفْوُ رَبِّى وثيقتى بالخلاصِ واعتصامى بسورةِ الإخلاصِ

وقيل إن من يردِّدها يكون من عباد الله المخلَصِين الذين أخلصوا له الدين ، وفى الأحاديث القدسية : «الإخلاص سِرٌّ من سِرِّى استودعته قلب من أحببتُه من عبادى» . ومن قول بعض الأسلاف : الناس كلهم هَلْكَى إلا العالمين ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملين ، والعاملون كلهم حيارى إلا المخلصين .